القضـايا اللِّسانيَّة المطروحـة في الكتاباتِ التَّمهيديَّة العربيَّة -نماذج مختارة -

The Lebanese issues in the Arab introductory writings - selected models -

ط د. سامي قديم
saminemouchi187@gmail.com
جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي -الجزائر-

تاريخ الاستلام: 2020/12/01 تاريخ القبول: 2020/12/05 تاريخ النشر: 2021/01/01

ملخص:

يهدفُ البحثُ إلى تقديمِ قراءةٍ في الكُتبِ اللِّسانيَّة العربيَّة الَّتي حَوَتْ بين طيَّاتها أهمَّ الآراء والأفكار السوسيريّة، لتَجعل مِن القارئ يَفهم ولو بشكلٍ بسيطٍ، ما هي اللّسانيات؟ وما موضوعها ؟، فالورقة البحثيّة تطرقتّ لنماذج من أفكار سوسير في بعضِ الكُتب العربيَّة، والَّتي جاءَ الاِختيارُ عشوائيًّا، لا أساس فيهِ للمُفاضلة، إنَّ المحاولات العديدة للكتابات العربية لهي مساهمة جديرة بالاحترام، كيف لا، وقد قدّمت هذه الكتب والمؤلّفات تبسيطا للقارئ ليفهم العلم، وإثراءً للمكتبات العلمية ليستفيد منها الكلّ حسب اختلاف تخصّصاتهم.

كلمات مفتاحية: قضايا لسانيّة، الكتابات التمهيدية العربية.

Abstract:

The research aims to provide a reading in the Arabic linguistic books that contained among its folds the most important opinions and thoughts of the Société, to make the reader understand, even in a simple way, what is linguistics? What is its subject matter? The research paper dealt with examples of Saussure's ideas in some Arab books, in which the choice came randomly, and there is no basis for comparison. And to enrich the scientific libraries so that everyone can benefit from them according to their different specializations.

Keywords: Linguistic Issues, Introductory Arabic Writings.

مقدمة:

اللُّغةُ مركزَ اهتمامِ الباحثين، لقيت الاهتمام في قديمًا وحديثًا، فأُلّفتْ فيها الكتبُ المُتنوّعة في شَتَّى المجالاتِ، كما بُذِلَت في دراستِها والتَّقعيدِ لها جهودٌ جبَّارةٌ، فصارتْ إرثاً لُغويًّا ضخماً. ومع شُهود العالمِ العربيّ في العصرِ الحديثِ نهضةً وانفتاحاً على ثقافاتٍ أخرى، بدأتْ تتشكَّلُ ملامحُ لسانيَّاتٍ عربيَّة حديثةٍ، وذلك عبرَ الاتِّصالِ واحتكاكِ العرب بالعالمِ الغربيّ، والَّذي مهَّد بدورِه إلى انفجارِ كمٍّ هائلٍ مِنَ النَّظريَّاتِ والمدارسِ اللِّسانيَّة المتباينةِ والمختلفةِ في الوطنِ العربيّ، والَّتي أهمُّها : البنويَّة، التَّوليديَّة، التّحويليَّة والتَّداوليَّة. وهذهِ الدِّراسةُ تسلِّطُ الضَّوء على أهمّ القضايا اللِّسانيَّة في الكتاباتِ التّمهيديَّة في العالمِ العربيّ، وتتَّخذُ مِنْ كتاباتِ أبرزِ الوُجوهِ في الدّراساتِ اللسانيَّة في عالمنا العربيّ عامَّة، نموذجاً للدِّراسةِ.

فالنَّاظرُ والمتتبّع لتاريخِ الدِّراساتِ اللُّغويَّةِ مُنذ النَّشأةِ الأولى، يلحَظُ الإهتمام بالهدفِ الَّذي تنشُده كلُّ دراسةٍ، فالدِّراساتُ اللُّغويَّة القديمةُ كانتْ تهتمُّ بالجانبِ الدِّيني، فهو مَصبُّ اهتمامها، ومناط نتائجها وأهدافها، والدراسات العربية كان لها هدف خدمة القرآن والحفاظ على لغته، واللسانيات الغربية مع دي سوسير وبعده جاءتْ لتدرُس اللُّغة كونها ظاهرةً بشريَّة، فالهدفُ من اللّسانيات هو معرفةُ الألسنيَّة من حيثُ هي ظاهرةٌ بشريَّة عامَّة، تدرُس اللِّسان البشريَّ عاميَّهُ وفصيحَه، لا تفاضُل بين اللُّغات، لا بين لغة العامَّة ولغة الطَّبقة المثقَّفة، فالكلُّ حَسَبَ منهَجِها جديرٌ بالدِّراسةِ.

1- اللسانيات: نظرة شاملة:

يرجع مصطلح **(Linguistique)** إلى الأصل اللاّتيني **(Lingne)** الذي يعني اللسان أو اللغة، فهو العلم الذي يقوم بدراسة اللسان البشري بطريقة علميّة، يصف ويفسّر الظواهر اللسانيَّة، ويهدف لكشف حقائق ومناهج الظواهر اللسانية ويبيّن وظائفها وعلاقاتها الإفراديّة والتراكيبية داخل وخارج بنية النصّ [1]، ويعود أوّل استعمال لمصطلح اللسانيات إلى جورج مونان، وذلك سنة 1833، ويعود استعمال كلمة لساني **(Linguiste)** إلى رينوار **(Rainouard)** سنة 1816، وذلك في مؤلفه الشَّهير "مختارات من اشعار الجوالة".[2]

إنَّ المتتبّع للدراسات اللغوية يجد أنها قد أثبتت أنَّ بداية الدَّرس اللغويّ كان في القرن الرابع قبل الميلاد عند الهنود الحمر، وذلك على يد بعض النَّحويّين الهنود، ويعد **(Panini)** أشهر الباحثين في الدّراسات اللغويَّة الهنديَّة، واعتمد "بانيني" على مبادئ أساسيَّة في دراساته اللغويَّة، حوت الشمولية، والتي تقوم بدراسة شاملة لجوانب اللغة، ثم الانسجام، ويقوم على عدم التناقض الكلي والمستمر في دراسة الظاهرة اللغويّة، فالاقتصاد، وهنو المنجز الكلاميّ في التَّعبير عن النتائج باستعمال أسلوب علمي.[3]

اللسانيات، علم قائم بنفسه، بني كغيره على فلسفة معينة (الحدّ، المادة، العلميّة، الغاية العلميَّة)، وهي الأبعاد التي تؤطر مساهرها وتنظر منهجيّتها، ولمّا كانت علميّة، فإنها تستخدم في منهجيتها المعايير العلمية، والتي يذكرها توماس كون كالتالي: (الملاحظة، التجريب، الضبط، الموضوعية)[4]، فاهتمام اللسانيات ينصبّ حول دراسة اللغة الحية المتداولة في التخاطب واللغات الميتة التي لم تعد مستعملة كاللاتينية والفرنسية القديمة، وتدرس كذلك اللغة التي هي في طريق الاندثار ذات الاستعمال الضيق.[5]

اللسانيات ومنهجها لا يميّزان بين لغة وأخرى، أو بين لغة ولهجة، وإنّما تهتم بالجميع، وتدرسها دراسة علميّة، لأن كلا اللغة واللهجة تؤدي وظيفة اساسية في نظر العلماء، وهي وظيفة الاتصال والتبليغ، فاللسانيات منذ النشأة اهتمت بموضوع واحد وهو اللسان **(La Langue)** في ذاته ومن أجل ذاته، أي دراسة اللغة لذاتها ولأجل ذاتها كما اصطلح عليه في التعريفات الكثيرة للسانيات.[6]

وفي الحديث عن موضوع النظريّة اللّسانيَّة، يقول تشومسكي في هذا الخصوص: " إن النظرية اللسانية تعنى بالمقام الأول بمتكلم مستمع مثالي في مجتمع لغوي متجانس تماما، حيث يعرف هذا الشخص لغة ذلك المجتمع معرفة جيدة، ويكون غير مصاب بهذه الحالات النّحويَّة غير الملائمة، مثل: قصور الذاكرة، الاضطراب العقلي، عدم الانتباه والاهتمام، والأخطاء العفوية والمميزة عند تطبيق معرفته اللغوية في كل أداء فعليّ.[7]

والحديث عن اللّسانيات في الواقع العربيّ الحديثِ عن نشأةِ اللِسانيات في العالم العربيّ يطولُ، لذا سنقتصر على لمحة وجيزة لظهور هذا العلم في الأوساط العربية.

ظهرت اللسانيات في العالم العربي وبدأت ملامحها تبرز في العقد الثاني من القرن العشرين، مع ما خلفه فيرديناند دي سوسير (1857-1913)، وذلك بعد جمع محاضراته من طرف تلميذيه: شارل بالي وألبرت شيشيه سنة 191، بعنوان: محاضرات في اللسانيات العامة"، **(cours de linguistique générale)**، فاللسانيات لم تكن علما قائما بذاته إلاّ بعد هذه المحاضرات، يقول أحمد مؤمن: " فاللسانيات هي الدراسة العلمية التي ظهرت في القرن العشرين، والتي وضع أسسها، وحدّ أهدافها ومناهجها اللساني السويسري دي سوسير، وتعنى بدراسة الأنظمة اللغوية دراسة آنية وصفية، وتعدّ في الحقيقة تتويجا لكلّ الأعمال السابقة التي عرفتها الفيلولوجيا والنحو التقليديّ.[8]

اختلفت التسميات للمصطلح اللساني، فقيل: علم اللغة، وقيل: الألسنية، علم اللسان، فقه اللغة، وقيل: الألسنة، مثل ما نجد في المدرسة اللبانية عند كلّ من أنيس فريحة وريمون طحان سنة 1972، بسلسلة معنونة بـ "الألسنية".[9]

لم يُؤثَر عن العرب أيُّ نوع من الدراسات اللغوية قبل الإسلام، ولهذا فهم متأخرون زمنيًّا عن كثير من غيرها من الأمم، والتي عرف لبعضها دراسات لغوية قبل الإسلام بقرون.

إنَّ البحث اللغويّ عند العرب من الدراسات المبكرة، وذلك لاشتغالهم واهتمامهم بالعلوم الشرعية والإسلامية. فاهتمامهم كان شرعيا بالدرجة الأولى، ثم تلتها محاولات نحوية ولغوية كجمع المصحف ووضع النحو، وتدوين اللغة [10]، فالكثير من المحاولات الأولى للدرس اللغوي كانت مرتبطة بالدين والعقيدة، فنجد ذلك عند الهنود الذين بدؤوا بحثهم اللغوي لخدمة النصوص المقدسة المسماة بالفيدا، ومثله عند الصينيين، واليونان، وبدأت دراسة اللغة والنحو في العبرية لخدمة الكتاب المقدّس[11].

وعلى أيِّ حال، فمن المنطقيّ أن يكون البحث اللغويّ عند العرب قد بدأ في شكل جمع للمادة اللغويّة، أو ما يُعرف بمتن اللغة، وأن يسبق ذلك الدَّرس النَّحويّ، والنّحو العربيّ في رأي علمائنا والباحثين والدّارسين قد نشأ قبل أن يكون علما.[12] فقد نشأ أولا ببدايات ساذجة، كان النحاة يسمعون العربية من كل القبائل، الفصيحة وغيرها، بل سمعوا حتّى من المجنون، وقالوا أنه ابن بيئته، ثم توالت الدراسات حتَّى وضعوا شروطا للجمع ووضع النَّحو على عليها العلماء وجعلوها منهجا لتحكيم اللغة.

تُحدَّدُ بدايات انتقال الفكر اللُّغويِّ الغربيّ (بطابعه التَّقليديّ) إلى ميدان التَّفكير اللُّغويّ العربيّ ببداية الاتّصال الفعليّ بالحضارة الغربيّة في العصر الحديث، وفي مصر تحديدا، إذْ برز التَّأثّر بهذا الفكر في كتابات رافع الطهطاوي، الذي دعا إلى إنشاء مجمع للغة العربيّة على غرار المجمع العلمي الفرنسي.[13]

ظهر التأثر بالكتابات الغربية في كتابي جرجي زيدان: الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية (1886)، واللغة العربية كائن حي (1904)، ويبدو فيهما متأثرا بالنزعة الدّاروينية التي سادت آنذاك، وبنظرية النّشوء والارتقاء، ونظرية النموّ التلقائي للكائن، إذ تبنّى نظريّة اللغات المرتقبة واللغات غير المرتقبة، ونظرية المقطع الأحادي التي تفسّر تولّد

الكلام، وحاول البحث في أصول العربية ونشأتها، مع مقارنتها بشقيقاتها من اللغات السَّامية، معتمدا النظريات التي سادت في نهاية القرن التاسع عشر.[14]

إنَّ تحديد لحظة النَّشأة، في ما تعلّق بالدَّرس اللساني الحديث، يرتبط برصد ظروفها وملابساتها، من حيث ارتباطها بالضرورة بالمناخ العام الذي حكم الفكر العربيّ الحديث بدءًا بعصر النهضة العربية، أوائل القرن التاسع عشر الذي كان وليد ظروف التدخل الاستعماري في البلاد العربية، ومن ثمّة استشعر اللسانيون العرب صعوبة تقديم المناهج اللسانية الحديثة للقارئ العربي، ولم تكن الصعوبة في عملية عرض هذه المناهج بقدر ما ارتبطت بإقناع الآخر بجدوى هذه العملية.[15]

كان للعقد الرابع من القرن العشرين الأثر الكبير في ظهر اللسانيات العربية، وبالتحديد السنوات من (1943 إلى 1946)، فكتاب إبراهيم أنيس "الأصوات اللغوية" الذي تبنى المناهج اللسانية الغربية، فكتاب إبراهيم أنيس حاول من خلاله تطبيق النظرية الغربية، وبشكل خاص نظرة البنوية للغة العربية وأصواتها.[16]

إنَّ كلّ بداية في حقيقة الأمر تجعل الدارسين في أيّ مجال يحتارون في المناهج وكيفية النقل وصيغة تقبّل المنقول، وهذا ما وقع للدرس والفكر اللساني الغربي، فالدارسون العرب فكروا كثيرا في إشكالهم المستعصي في كيفية نقل وتعرض وتقديم الكتابات للقارئ العربي.

إنَّ تأخّر ترجمات كتاب دي سوسير إلى العربية وكثرتها، جعلها متفاوتة بين الرداءة والجودة، وكثرة الترجمات دليل على مدى أهمية الكتاب الذي جمع محاضراته طلاب سوسير سيرل بالي وألبرت شيشيه والذي نشر سنة 1916 م، فكتاب محاضرات في اللسانيات العامة ترجم للعديد من اللغات، واتّخذ كمرجع أول في جامعات العالم في دراسة اللسانيات، وكان للوطن العربية والعربية أوفر نصيب من الترجمات.[17]

إنصافا، وعلى الرغم من تأخر ترجمة كتب دي سوسير، وسبق اللسانيات له سبقا عظيما الآن، إلاّ أنَّ ترجمته إلى العربية ضرورية لقيمته التَّاريخيَّة كما أورد حمزة المزيني.

2- الكتاباتِ التَّمهيديَّة وأهمُّ القضايا المطروحةِ في السّاحة اللسانيّة العربيّة: .

الكتابة التمهيدية (أو التَّيسيريَّة)، هي طريقة في التأليف، لا يمكن لأي علم أنْ يذيع وينتشر دونها، لذلك من الطبيعيّ أن يشكّل هذا النَّوع من التّأليف أحد الاهتمام الأساسية لنشر العلوم وتقريبها إلى القرّاء.[18]

تعدّدت الكتابات اللّسانيّة العربيَّة في الوطن العربيّ، وهذه قراءة لبعضٍ العتباتِ اللّسانيَّة العربيَّة، فكثيرة هي المؤلَّفات التي حَوَتْ بين طيَّاتها الحديث عن اللسانيات والقضايا المطروحة في الساحة العربية والفكرية اليوم، وسيقتصر البحث على بعض هاته المؤلَّفات لا على أهمِّها.

- علم اللغة – مقدّمة للقارئ العربيّ- ا: محمود السَّعران.
- اللّسانيّات الوظيفيّة – مدخل نظريّ- لـ: أحمد المتوكّل.
- علم اللغة لـ: علي عبد الواحد وافي.
- في علم اللغة العام لـ: عبد الصَّبور شاهين.
- مدخل غلى علم اللغة لـ: محمود فهمي حجازي.
- مبادئ اللّسانيَّات لـ: خولة طالب الإبراهيمي.

القارئ والمتفحّص لعناوين هذه الكتب ومقدّماتها أو محتوياتها أيضا، يسهل عليه معرفة موضوع علم اللّسانيّات، فكلّ تلك المسمّيات هي تبسيط وتدليل للقارئ المبتدئ أنّ هذا هذه الكتب في مفاتيحك للوصول ولفهم هذا العلم الذي غزا العالم، فهذه الكتب هي ثمرة جهود كبيرة لتبسيط اللسانيات وتوصيلها للقارئ العربيّ.

2-1- أسباب ودواعي نشأة الكتابة اللّسانيَّة:

لكلّ علم مهمَّته التي نشأ لأجلها، إمَّا مناصرة لقضيّة ما، أو دفاعا عن نظريَّة وتوجّه ما، وتنحصر دواعي الكتابة اللسانيَّة في:

- **تقريب وتبسيط العلم للقرّاء:** يبدأ التَّبسيط من عناوين الكتب المؤلَّفة في مجال اللسانيات، فهي تقرب المسافة بين القارئ وتلك الكتب، فكلمة: مقدّمة، توطئة، أسس ومدخل، كلّها تلتزم بالجانب التبسيطي التي تقرّب اللسانيات من القارئ، فالعناوين والمقدّمات هي التي تحاول التواصل والتقريب مع القارئ.

إنَّ مهمّة مؤلّفي الكتابات اللسانية العربية التمهيدية تبسيط المعارف اللسانيّة، فقد كتبوا وشرحوا وبيَّنوا وسهَّلوا كتاباتهم لتصل للقارئ. فمثلا: محمود السعران في كتابه "مقدّمة للقارئ العربيّ"، نجده قد ذلّل كلّ الصّعوبات لتيسير فهم اللسانيّات، وجعل القارئ يتلقّى أصول هذا العلم. قال: "وقد حاولت تبسيط حقائق هذا العلم ما وسعني التّبسيط، مع حرصي على الدقة والسّلامة، حتى يستقلّ القارئ المبتدئ بتحصيل ما فيه ومُدَارسته، وينتقل منه إلى مطالعة أصول هذا العلم منقولة إلى العربية، أو مكتوبة بلغاته... وكان أوّل ما راعيته تحقيا لهذه الغاية إثبات المصطلح الإنجليزي بحرفه..."[19]

- **إثراء المكتبات اللسانية العربية:** إنّ مهمّة المؤلِّفين في اللسانيات العربيّة، توصيل اللّسانيّات للخاص والعام، مع إثراء المكتبة العربية للاستفادة والاستزادة، يقول التهامي الراجحي الهاشمي: "أقدّم للقارئ العربيّ هذا المؤلَّف الذي يفتح سلسلة من الدراسات اللغوية، وهي سلسلة أقصد من ورائها سدّ الفراغ الذي يشتكي منه علم اللغة في عالمنا الغربيّ، وقد حاولت أن أجمع في هذا العدد كلّ ما شأنه أنْ يعرف القارئ باللّغة موضوع الدّرس".[20]

ونجد مصطفى غلفان يقول: "وليس في نيّتنا سدّ الفراغ المهول الذي تشكوه الثقافة العربيّة في مجال الكتل التي تعرّف باللسانيّات العامّة أو الادّعاء بأنّ هذا المؤلف أفضل من سابقيه، ولكنّه يطمح ما أمكن إلى تجنّب ما نراه سلبيّا فيها، غير متردّدين في الأخذ منها كلما بدا لنا ذلك مفيدا بالنّسبة إلى القارئ العربيّ، لا سيما وأنّه يتوجّه إلى فئة محددة من القرّاء هم الطّلبة المبتدئون في اللسانيات والرّاغبون في استثمارها في مجالات معرفيّة أخرى، كالأدب والنّقد وغيرها، وطلبة علوم التّربية وجمهور المثقّفين ".[21]

2-2- فوضى المصطلحات والإشكال الموضوعي:

القارئ في الكتب التي تناولت الكتابة اللسانية التمهيدية يلحظ ارتباكا واضحا في تحديد موضوع الدّرس اللّسانيّ تحديدا دقيقا، فاختلاف الموضوعات وعناوينها مثلا: عند عبد الصبور شاهين في علم اللغة، وعلم اللغة العام يحتاج إلى وقفة مطوَّلة لإزالة ما يحمله من التحديات ومن غموض وخلط.[22] فاختلاف المواضيع المناقشة في المؤلّفات تجعل القارئ في حيرة في تحديد موضوع اللسانيات، ومن المواضيع التي يناقشها المؤلِّفُ: "النّظريات المختلفة في أصل اللغة و الّراع اللغويّ، اللغة المشتركة، مقياس الصّواب والخطأ في اللغة، القرآن والعربيّة وأزمة اللغة المعاصر"، فهل هذه القضايا كلّها من علم اللغة واللسانيات فعلا كما يقول علوي حافظ إسماعيل.[23]

يحدّد مؤلِّف آخرُ موضوع علم اللسانيات بأنّه كلّ "أشكال اللغة وألوانها وتغيّراتها وتطوّراتها وتركّز اهتمامها على كلّ ما يرتبط بموهبة الكلام التي تميّز الإنسان عمّم سواه".[24]

ونجد مؤلّفا آخر يجعل موضوع غلم اللغة هو : " البحث في نشأة اللغة الإنسانيّة... علاقة اللغة بالمجتمع الإنسانيّ والنّفس البشريّة، وآخر مجالات هذا العلم هو حياة اللغة وتطوّرها".[25]

يقول حافظ إسماعيل علوي: " بمثل هذا الخلط والارتباك في تحديد موضوع اللسانيات، يواجهنا الكتابات اللسانيّة التّمهيديّة، ولاشكّ أنّ لهذا الوضع أسبابه، ويمكن أن نذكر منها: غياب تقنيات البحث اللّسانيّ والكسل المعرفيّ الّذي يحول دون مواكبة بعض الباحثين للمستجدات اللسانيّة.

3- القضايا والنَّماذج المؤلفاتيّة المطروحةِ في السّاحة اللسانيّة العربيّة:

القارئ الجيّد، والمدقّق في الكتابات العربيّة يجد أنّ مواضيعها تحمل شقّا خاصا بدي سوسير والشقّ الآخر يهتمّ بالقضايا والاتّجاهات التي درسها واعتنى بها، والقضايا التي طُرحت في الكتابات اللسانيّة العربيّة كثيرة، وسيقتصر البحث على أهمّها:

3-1- ثلاثية: اللّسان و اللغة والكلام:

أهمّ مبدأ ركّز عليه ديسوسير، فهو يرى أنّ الظّاهرة اللُّغويّة تتمثّل في ثلاثة مصطلحات أساسية: اللسان (La Langne)، واللغة (La Langue)، والكلام (La Parole)، وقد اكتسبت هذه المصطلحات صبغة عالمية في اللسانيات الحديثة، واستعملت كما هي دون ترجمة خاصّة في اللغات الأوروبيّة ويدلّ: "اللّسان" على النّظام العام للّغة ويضمّ كلّ ما يتعلّق بكلام البشر، وهو بكلّ بساطة لسان أيّ قوم من الأقوام[26]، فاللسان عند سوسير هو ظاهرة عامة لا بدّ أن تشمل كلاّ من الكلام واللغة.[27]

ينبّه سوسير إلى مسألة مهمّة فيقول: "لا ينبغي الخلط بين اللغة واللسان، فما اللغة إلاَّ جزء محدَّد منه، بل عنصر أساسي، وهي في الوقت نفسه نتاج اجتماعيّ لملكة اللسان، ومجموعة من التواضعات الضرورية التي تبناها الجسم الاجتماعيّ لتكمين الأفراد من ممارسة هذه الملكة.[28]

أمّا اللغة في نظر سوسير: "فهي واقعة اجتماعيّة، وخصوصياتها ليست مجرّدة بل متواجدة بالفعل في عقول النّاس، وهي ذلك النّظام من العلامات والقواعد والصّيغ، تنتقل من جيل إلى جيل، وليس له تحقّق فعليّ، لأنّ الناس لا يتكلّمون القواعد، وإنّما

يتكلمون وفقا لها، وأقرب شيء إليها أنّها تشبه السيمفونيّة على حين يشبه الكلام العزف على الآلات.[29]

أمَّ الكلام: فإنّه الفعل الكلاميّ الملموس، ونشاط شخصيّ مراقب، يمكن ملاحظته من خلال كلام الأفراد أو كتاباتهم، وهو مطابق لمفهوم الأداء الذي وضعه تشومسكي، وقد عرّفه سيوسير بقوله: "إنّه مجموعة ما يقوله الأفراد، ويشمل:

- أنساقا فرديّة خاضعة لإدارة المتكلّمين.
- أفعالا فونولوجيّة إداريّة أيضا وضرورية لتنفيذ هذه الأنساق.[30]

إنّ أبرز الفروق التي تميّز الكلام عن اللغة:

- الكلام نشاط فرديّ (أحداث فرديّة)، فليس الكلام وسيلة جمعيّة، فكلّ صوره وتجسّداته فردية غير متجانسة، حالية (منسوبة إلى لحظة الكلام).
- اللغة نموذج جمعيّ: عند كل فرد، وهي الأداة المشتركة بين المتكلمين.
- اللغة موجودة في شكل يتألف من مجموعة من الصّور اللفظيّة المختزنة في عقول جميع الأفراد.
- اللغة ليست كالكلام، إذ يمكن أن ندرسها مستقلّة، فاللغات الميّنة نستطيع دراسة أنظمتها اللغوية معنا غير قادرين على الحديث بها.
- اللغة نتاج جمعي لملكه اللسان.[31]

2-3- العلامة اللغويّة (Linguistic Sign): أو الدّليل اللغويّ، الإشارة اللغوية، الرّمز اللغويّ، فجميعها لها حقل واحد، فاللّغة في نظر سوسير: عبارة عن مستودع من العلامات، والعلامة وحدة أساسية في عملية التواصل بين أفراد مجتمع معيّن، وتضمّ جانبين أساسين هما: الدّال ()، والمدلول ()[32]، فالدّال هو الصّورة الصّوتيّة، والمدلول هو الصّورة المفهوميّة التي تعبّر عن المتصوّر الذهنيّ الذي يحيلنا إليه الدال[33]، ويرى سوسير أنَّ العلامة اللغويّة لا تربط شيئا باسم بل تصوّر بصورة سمعيَّة.

إنَّ كلاً من عنصرا الدّال والمدلول لحمة واحدة، الأوّل يستدعي الثّاني، فمثلاً: إنَّ العلامة "قلم"، يجوز النّظر إليها من جانب ماديٍّ: الموجود الخارجيّ واللفظ المنطوق. ويجوز النظر إليها من جانب ذهنيّ: وهو مفهوم و الصورة الذّهنيّة التي يشار إليها بلفظ "قلم"، وهو صورة سمعيّة أو صورة اللّفظ[34]، ويجدر التنبيه إلى أنَّ سوسير أشار في كتاباته إلى أنَّ العلاقة بين الدّال والمدلول اعتباطيّة.

3-3- النّظرة الوصفيّة والتّاريخيّة:

ممّا يميّز علم اللغة الحديث عن علم اللغة التقليدية أنّه ينظر إلى اللغة نظرة وصفيّة تقوم على أساس الملاحظة المباشرة للظواهر اللغويّة المدروسة في فترة زمنيّة محدّدة في زمان محدّد. وقد ظهر سوسير والمنهج التاريخي قد بلغ أوجه على أنقاض البحوث المقارنة، ولقد تبيّن آنذاك، أنّ عليهم أن يفرّقوا بينهما، وأن يعترفوا بأنه لا يوجد علم يسمى بالقواعد المقارنة، فهدة القواعد ليست إلاّ طرفا للمقارنة.[35]

عارض سوسير الاتجاه المقارن، واتّهم أتباعه بأنّهم لم يصلوا إلاّ إلى فروض متعارضة ومشوّشة، وأنّ منهجهم لم يكن تاريخيا حقا، فعبّر أنّ كلّ ما يخصّ الشقّ الثابت للعلم فهو وصفيّ (Synchronic)، وكلّ ما له علاقة بالتطوّر فهو تاريخيّ (Diachronic)، وعلى هذا النّحو، يفضل الحديث عن الوصفيّة لتشير إلى اللغة في حالة ثبات، وعن التاريخية، لتشير إلى اللغة في حالة تطوّر.[36]

3-4- ثنائية المحور الاستبدالي والمحور النظمي:

فرّق سوسير بين المجموعات اللغويّة المتوافرة في الذاكرة، والتي تشكّل محورا شاقوليًّا استبداليًّا (Paradigmatique)، ولكي يتمّ إدرام معنى ما يرد في الجملة من كلمات لا بدّ من النظرين إلى المحورين معا[37]، فمعنى (الطائرة المروحيّة)، ضمن نسق الجملة ما يستخلص من هذا المحور النّظمي، على حين أنّ معناها الذي لا يقدمه نسق الجملة

يستفاد من كلمات أخرى على المحور الاستبداليّ، نحو: طائرة، ركّاب، طائرة حربيّة، طائرة شراعيّة، طائرة نفّاثة، ونحوها.[38]

بهذه الجولة القصيرة، قد وقعنا على أهمّ القضايا التي نقلها علماء العرب من كتاب محاضرات في علم اللغة العام Cours De Linguistique Générale، إلى الكتابات العربيّة، وتبقى فيها الدّرجات متباينة متفاوتة، وبأشكال مختلفة ومتعدّدة.

3-5- علم اللغة التّاريخي:

قدّم سوسير لمحة عن تاريخ علم اللغة، والجهود التي قام بها بعض اللغويّين المشهورين، والذين كان لهم دور بارز من جهة نظره في تقدّم الدراسة اللغويّة، ووجّه اهتمامه إلى علما للغة الوصفيّ أو لغة الكلام (Parole)، وعدّ هذا موضوعه الرّئيس، لأنَّ الكلام هو اللغة بالفعل، لأنَّ الناس يتعاملون به... كما أنّه فصل بين المنهج الوصفيّ والمنهج التّاريخي، أو علم اللغة الوصفيّ، وعلم اللغة التاريخي، وصحّح بعض المفاهيم التي كانت سائدة في الدّراسات اللغويّة الأوروبيّة بخصوص العائلات اللغويّة وعلاقاتها بالزمان والمكان والجنس.[39]

وقد تناول اللغة واللغة باعتبارهما أفضل أداة اتصال ابتكرها الإنسان، وجعل الدائرة لا تكتمل إلاّ بوجود مرسل ومستقبل، ثمّ تحدّث عن الدّور الذي يلعبه كلّ لفظ إضافة إلى نظرته الكليّة للغة، فهو يرى عدم انفصال الصورة الصّوتيّة عن الفكرة التي تعبّر عنها، وهو ما يصوّر نظرته البنويّة للغة.[40]

إنَّ المدقّق والباحث والمتقصّي في الكتابات المتناولة للسانيات العربيّة، وخاصّة التمهيديّة منها يجدُ أنَّها تتناول الآراء والأفكار السّوسيرية ، وسنركّز على نماذج من هذه الكتابات.

نجد في كتاب "نظريّة التوصيل وقراءة النصّ الأدبيّ" لـ: عبد الصّبور شاهين: أنّه تحدّث في مقدّمة البحث تحت عنوان: النظريات البنوية (Structuralism)، عن ماهية

البنوية ؟ وما هو منطلقها ؟، ولمَّح سوسير أنَّه كان أوَّل من مهَّد لظهور البنويَّةّ، وذلك أنَّ وصف سوسير اللغة بأنها نسق من الإشارات التي يصدرها الإنسان بصوته، ومذ أخذ في البحث عن طبيعة الإشارة، وكونها اعتباطيّة، مفرّقا بين الدّال والمدلول من ناحية، وناظرا للعلامة بوصفها الكل الذي يتركّب من الدال والمدلول من ناحية أخرى، ثمّ تفريقه بين اللغة والكلام.[41]

إنّ أفكار دي سوسير حسب عبد الناصر حسن محمد، قد شكّلت أساسا معرفيّا وفكريا يمثّل نقطة الانطلاق للنظريّات البنوية خصوصا، فالبنوية عند الأقطاب المؤسّسين قائمة على تمثّل مقولاي اللاوعي عند فرويد، والنّسق أو النّظام عند دي سوسير.

وفي كتاب "مشكلة البنية أو أضواء على البنوية" لـ: زكريا إبراهيم: تحدّث في تصدير[42] الكتاب عن البنية وتعاريفها، ثم عن علم الأصوات[43]، فالبنية في ميدان اللسانيات [44]، ثم فصولا عن ميادين البنية في التاريخ والثقافة والتّحليل النسقي وفي ميدان اللسانيات والأنثربولوجيا.

ونلاحظ في "كتاب الخطيئة والتّكفير من البنويّة إلى التّشريحيّة –نظريّة وتطبيق-" لـ: عبد الله الغذامي: كتاب قيّم، من أهمّ الكتب في اللسانيّات التّمهيديّة العربيّة، وقد أشار في معرض حديثه عن البنوية إلى تعريف اللغة. قال: "ومنذ أن أخذ بتعريف اللغة على أساس أنها نظام من الإشارات (Signs)، وهذه الإشارات هي أصوات تصدر من الإنسان، ولا تكون ذات قيمة إلاّ إذا كان في صدورها للتّعبير عن فكرة أو توصيلها".[45]

تحدّث الغذامي عن ثنائيّة الآنيّة كما سمّاها سوسير، والتعاقبيّة أو التّاريخيّة، أي: دراسة اللغة حسب تمدّدها التاريخي[46]، لينتقل للحديث عن مسألة مهمّة، وهي ثنائيّة: (الاختيار/ التأليف)، وبيّن أنّ قيمة الصّوت أو الكلمة أو الوحدة، لا تكون لها قيمة في ذاتها، ولكن قيمتها تكمن في الوظيفة التي تؤدّيها في الرّبط بين الأصوات والكلمات.[47]

وفي عودة سريعة لعبد الصبور شاهين في علم اللغة العام، يذكر المؤلِّف في الصَّفحة الثالثة من التقديم انّ كتابه هذا أو دراسته: "تتعرّض لأهمّ القضايا التي تثير هذا العلم بالنّسبة إلى جميع اللغات بعامّة، وإلى اللغة العربيّة بخاصّة، وقد حاولت جاهدا أن أقتصر على الأفكار الأساسيّة، دون استطراد يتّجه إلى التخصّص، فكلّ مسألة من مسائل هذه الدّراسة فرع يعالجها، ويعمّق بُحوثها..."[48]

يتحدّث عبد الصبور شاهين على أنَّ بعض فروع علم اللغة لا يظفر بالدّرس في نطاقه المنهجيّ بالنّسبة إلى اللغة العربيّة، نظرا إلى استقلال هذه الفروع ... وإذا كان لعلم اللغة أفكار معيّنة تتناول قضاياهما، فإنّ ذلك بغيد عن المجال التّطبيقيّ لهما، وهي على أيّة حال أفكار تهمّ المتخصّصين في الدّراسات اللغويَّة الحديثة، سواء أكانوا من النّحاة أم من اللغويين، فالهدف واحد، وإن اختلفت الطرق.[49]

ومن أهمّ المباحث التي تناولها بالبحث في كتابه: أنّه حدّد المصطلحات (علم اللغة، فقه اللغة).[50] وأعطى نظرة وصفيّة لتاريخ علم اللغة، مع حديثه عن فروع الدّراسات اللغويّة، ثم ختم حديثه عن قضايا العربيّة ومشكلاتها المعاصرة.

ذكر المؤلّف العديد من الأبحاث في مجال الكتابات العربية التمهيدية، غير أنّ منهجه يعتريه بعض الخلل والنّقص، والبحث الذي نحن بصدده، ليس لمعالجة المنهج والنقائص في كتبابه "في علم اللغة العام".

خاتمة:

إنّ هذه الجولة في قراءة الكتب اللسانية العربية التي حوت بين طيّاتها أهم الآراء والأفكار السوسيريّة، لتجعل من القارئ يفهم ولو بشكل بسيط، ما هي اللسانيات ؟ وما هو موضوعها ؟ تطرقتّ الورقة البحثيّة إلى نماذج من أفكار سوسير في بعض الكتب العربية، والتي جاء الاختيار عشوائيا، لا أساس فيه للمفاضلة، إنَّ المحاولات العديدة للكتابات العربية لهي مساهمة جديرة بالاحترام ، كيف لا، وقد قدّمت هذه الكتب

والمؤلّفات تبسيطا للقارئ ليفهم العلم، وإثراءً للمكتبات العلمية ليستفيد منها الكلّ حسب اختلاف تخصّصاتهم.

هوامش البحث:

[1]- ينظر: عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديث، دار الصفاء، الأردن، ط 1، 2002، ص 107.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص 106.

[3]- ينظر: أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 2، 2005، ص 8.

[4]- ينظر: السعيد شنوقة، مدخل إلى المدارس اللسانية، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، مصر، ط 1، 2008، ص 9.

[5]- ينظر: المرجع نفسه، ص 9.

[6]- ينظر: أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ص 210.

[7]- ينظر المرجع نفسه، ص 210.

[8]- المرجع السابق: ص 281.

[9]- ينظر: مصطفى غلفان، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، حفريات النشأة والتكوين، المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2006، ص 149.

[10]- ينظر: أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، عالم الكتب، القاهرة، ط 6، 1988، ص 79-80.

[11]- ينظر المرجع نفسه، ص 81.

[12]- ينظر: المرجع نفسه، ص 81.

[13]- ينظر: فاطمة الهاشمي بكوكي، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث –دراسة في النشاط اللساني العربي-، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط 1، 2004، ص 12.

[14]- ينظر: المرجع نفسه، ص 12-13.

[15]- ينظر المرجع نفسه، ص16.

[16]- ينظر: عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، دار الصّفاء، عمَّان، الأردن، ط 1، 2002، ص 18.

[17]- ينظر: ميشال أريفيه، البحث عن فرديناند دي سوسير، تح: محمد محمود البقاعي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، الرياض، ط 1، 2009، ص 09.

[18]- ينظر: علوي حافظ إسماعيل، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة –دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته-، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط 1، 2009، ص 99.

[19]- محمود السَّعران: علم اللغة مقدّمة للقارئ العربيّ، دار النّهضة العربي، بيروت، د ط، د ت، ص06.

[20]- التهامي الراجي الهاشمي: توطئة لدراسة علم اللغة التّعاريف، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة (آفاق عربيّة)، بغداد، د ت، د ط، ص 05.

[21]- مصطفى غلفان، في اللسانيّات العامّة، تاريخها، ص 5.

[22]- ينظر: حافظ إسماعيل علوي اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة –دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته-، ص :

[23]- المرجع نفسه: ص 120.

[24]- المرجع نفسه: ص 120.

[25]- المرجع نفسه: ص 122.

[26]- أحمد مؤمن: اللسانيات النشأة والتطور، ص 123.

[27]- محمد حسن عبد العزيز، سوسير رائد علم اللغة الحديث، دار الفكر العربيّ، القاهرة، د ط، 1989، ص 20.

[28]- ينظر: أحمد مؤمن، اللسانيات النشأة والتطور، ص 123.

[29]- محمد حسن عبد العزيز، سوسير رائد علم اللغة الحديث، 20.

[30]- ينظر: أحمد مؤمن، اللسانيات النشأة والتطور، ص 124.

[31]- ينظر: حسن عبد العزيز، سوسير رائد علم اللغة ، ص 23-24.

[32]- أحمد مؤمن، اللسانيات النشأة والتطور، ص 127.

[33]- ينظر: أحمد محمد قدّور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1996، ص 21.

[34]- - ينظر: حسن عبد العزيز، سوسير رائد علم اللغة ، ص 26-27.

[35]- المرجع السابق، ص 44.

[36]- المرجع السّابق، ص 46.

[37]- ينظر: أحمد محمد قدّور، مدخل إلى اللّسانيّات، ص 24.

[38]- ينظر: المرجع نفسه، ص 24.

[39]-ينظر: أحمد نعيم الكراعين، فصول في علم اللغة، فرديناند دي سوسير، ترجمه إلى العربية: دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، ط 1، ص 5.

[40]- ينظر: المرجع نفسه: ص 03.

[41]- عبد الناصر حسن، نظرية التوصيل وقراءة النصّ الأدبيّ: ص 29.

[42]- زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، ص6.

[43]- المرجع نفسه: ص 29.

[44]- المرجع نفسه، ص 10.

[45]- عبد الله الغذامي: الخطيئة والتكفير من البنوية إلى التشريحية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2006.

[46]- المرجع نفسه، ص 31.

[47]- المرجع نفسه: ص 36.

[48]- شاهين عبد الصّبور، في علم اللغة العام، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ط 6، 1993، ص 3.

[49]- المرجع نفسه : ص 5.

[50]- المرجع نفسه: ص 10.